

سلسلة رسائل الفضيلة

(٦)

عَشْرَ قَوَاعِدٍ فِي

الاسْتِقَامَةِ

تأليف

عبد الرزاق بن محمد المحسن البدر

دار الفضيلة

مُحْفَوْنُ الطَّبِّعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

(1431هـ - 2010م)

رقم الإيداع: 1317 - 2010

ردمك: 7 - 20 - 866 - 9947 - 978

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

العنوان: حي باحة (03)، رقم (28) الليدو - المحمدية - الجزائر

هاتف وفاكس: 021519463

التوزيع: 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني: darelfadhila@maktoob.com

موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ
شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مِنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي، وَمَنْ
يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا
شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

إِنَّ مَوْضِعَ هَذِهِ الرَّسَالَةِ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ وَهُوَ مَوْضِعٌ
عَظِيمٌ الْأَهْمِيَّةِ جَلِيلُ الْقَدْرِ، وَحَقِيقٌ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يُعْنَى
بِهِ، وَأَنْ يُعْطِيَهِ مِنْ اهْتِمَامِهِ وَعِنَايَتِهِ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمُؤْمِنِيكَ مِنْ
الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
 [سُورَةُ الْحَقِّفَاتِ]، وقال الله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ
 ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا
 وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
 تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ عَفْوَهِمْ رَحْمَتُ اللَّهِ ﴿٣٢﴾ [سُورَةُ مُنَافِقَاتِ].

فالاستقامة يترتب عليها سعادة الدنيا والآخرة، وفلاح
 العبد وصلاح أمره كله؛ فحقيق بالناصح لنفسه الراغب في
 سعادتها أن يُعنى بالاستقامة عظيم العناية علماً وعملاً وثباتاً
 على ذلك إلى الممات، مستمداً العون من الله تبارك وتعالى.
 وكثيراً ما تردُّ الأسئلة من الناس على أهل العلم
 وطلابه والدعاة إلى الله ﷻ والمُصلحين عن الاستقامة، وعن
 حقيقتها، وعن الأمور المعينة على الثبات على صراط الله
 المُستقيم إلى غير ذلك من السُّؤالات التي ترد في هذا الباب.

وقد رأيتُ أَنَّهُ من المفيدِ لنفسي ولإخواني جمعَ بعضِ القواعدِ المهمَّةِ الجامعةِ في هذا الباب؛ لتكون لنا ضياءً ونبراساً بعد مطالعةِ لكلامِ أهلِ العلمِ وأقاويلهم رحمهم الله تعالى عن الاستقامة، وعمَّا يتعلَّقُ بها، وسأذكر في هذه الرِّسالةِ عشرَ قواعدٍ عظيمةٍ في بابِ الاستقامة، وهي قواعدٌ مهمَّةٌ جديرٌ بكلِّ واحدٍ منَّا أن يتنبَّهَ لها.

ومن الله وحده أستمدُّ العونَ وأستمنحُ التَّوفيقَ.

الاستقامة منة إلهية وهبة ربانية

ففي آياتٍ كثيرة من كتاب الله - سبحانه وتعالى -
يضيف الله ﷻ إلى نفسه الهداية إلى صراطه المستقيم، وأنَّ
الأمر كله بيده ﷻ يهدي مَنْ يشاء، ويضلُّ مَنْ يشاء، وبيده
- سبحانه وتعالى - قلوب العباد، فمن شاء أقامه - تبارك
وتعالى - على الصراط، ومن شاء أزاغه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ
وَإَشَدَّ تَنبِيْهُنَّ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدِيَنَّهُمْ
صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ].

فالهداية إلى الصراط بيد الله ﷻ، وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا

الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ
 وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ [سُورَةُ النَّبَاتِ]، وقال
 الله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ
 ﴿٢٥﴾ [سُورَةُ يُنُسُ]، وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايُنِنَا صُفْدًا
 وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَنْ يَشَاءُ اللّٰهُ يُضِلِّهِ ۚ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ
 مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣١﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ]، وقال الله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ يَهْدِي مَنْ
 يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ]، وقال الله تعالى:
 ﴿إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٣٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ
 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ [سُورَةُ التَّكْوِينِ] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة؛ فالهداية بيد الله ﷻ يَمُنُّ

بها - سبحانه وتعالى - على من يشاء من عباده.

ولهذا كان من أوّل قواعد الاستقامة وأسسها التَّوَجُّهُ

الصَّادِقُ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي طَلِبِهَا؛ لِأَنَّهَا بِيَدِهِ، وَهُوَ - سبحانه

وتعالى - الهادي إلى صراطه المستقيم، وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، وهذا هو الثبات على الاستقامة.

قالت أم سلمة: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: «نَعَمْ؛ مَا مِنْ خَلْقٍ لِي اللهُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَإِنْ شَاءَ اللهُ جَزَّزَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَهُ»^(١).

فالاستقامة بيد الله، فمن أرادها لنفسه؛ فليطلبها من الله، وليلح في السؤال، وقد جاء في «صحيح مسلم»^(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها سئلت: بأي شيء كان النبي ﷺ يفتتح صلاته من الليل؟ قالت: إذا قام من الليل افتتح

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥٧٦)، والترمذي (٣٥٢٢) وحسنه، وانظر: «الصحيح» للألباني (٢٠٩١).

(٢) برقم (٧٧٠).

صَلَاتِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ
عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفْتُ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ
بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فهذا كان - عليه الصلاة والسلام - يقوله كل ليلة في
افتتاحه لصلاة الليل: «إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».
ولما كان هذا المطلب - أي سؤال الله تعالى الهداية -
أعظم المطالب وأجلها؛ أوجب الله - سبحانه وتعالى - على
عباده أن يسألوه الهداية إلى صراطه المستقيم مرّات متكرّرة
في اليوم والليّلة، وذلك في سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ
﴿٧﴾﴾، قال بعض أهل العلم: ينبغي أن يُنبّه العوامُّ إلى أنّ
هذا دعاء؛ فعندما تقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ أنت
تدعو الله بهذه الدعوة التي أوجبها الله عليك سبعة عشر مرّة

في اليوم والليلة بعدد ركعات الصلاة المكتوبة.
ولهذا ينبغي على المسلم أن يستشعر أن هذا دعاء؛ وقد
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «تأملتُ أنفعَ الدعاءِ،
فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيتُه في الفاتحة في
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»^(١)، وقال: «أمر العبدُ بدوام
دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة»^(٢).
فأنت مطلوبٌ منك أن تُداومَ على هذا الدعاء دعاء الله
الهداية للاستقامة، وهو موجودٌ في سورة الفاتحة.

وكان الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ إذا قرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّنَا
فَارْزُقْنَا الاستقامة»^(٣).

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/٧٨).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٨٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/٤٦٥).

حقيقة الاستقامة
لزوم المنهج القويم والصراط المستقيم

ونسترشد في معرفة حقيقة الاستقامة بالوقوف على
نقول مباركة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان في بيان
معناها وتوضيح حقيقتها:

قال صديق الأمة أبو بكر رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾: «هُم الَّذِينَ لَمْ يُشْرِكُوا
بالله شيئاً»^(١).

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/٤٦٤) ط. مؤسسة الرسالة.

على المنبر: ﴿إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، فقال: «لم يروغوا روغان الثعلب»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾: «على شهادة أن لا إله إلا الله»؛ ورؤي نحوه عن أنس ومجاهد والأسود بن هلال وزيد بن أسلم والسدي وعكرمة وغيرهم^(٢).

ورؤي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «استقاموا على أداء فرائضه»^(٣).

وعن أبي العالية قال: «ثم أخلصوا له الدين والعمل»^(٤).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٦٥ / ٢١).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٤٦٤-٤٦٥ / ٢١) ط. مؤسسة الرسالة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٦٥ / ٢١).

(٤) أورده الماوردي في «النكت والعيون» (٢٧٥ / ٥).

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قال:
«استقاموا على طاعة الله»^(١).

ذكر هذه الأقوال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في «جامع العلوم
والحُكْم»^(٢)، ثم عرّف الاستقامة بقوله: «والاستقامة: هي
سلوك الصّراط المستقيم، وهو الدينُ القيم من غير تعريبٍ
عنه يَمَنَّةً ولا يَسْرَةً، ويشمَل ذلك فعل الطّاعات كلّها،
الظّاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلّها كذلك، فصارت هذه
الوصية جامعةً لِحِصَالِ الدِّينِ كُلِّهَا»^(٣) انتهى كلامه.

وهذه المعاني كلّها متقاربةٌ ويفسّر بعضها بعضاً؛ لأنّ
الاستقامة من الكلمات الجامعة التي تشمل الدين كله.

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنّف» (٢٦١٨).

(٢) (ص: ٣٨٣-٣٨٤).

(٣) (ص: ٣٨٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فلاستقامة كلمة جامعة آخذة
بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصديق
والوفاء بالعهد»^(١).

(١) في «مدارج السالكين» (٢/١٠٥).

أصل الاستقامة استقامة القلب

روى الإمام أحمد^(١) من حديث أنس بن مالك رضي عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ». فأصل الاستقامة استقامة القلب، فالقلب إذا صلح واستقام تبعه البدن.

قال الحافظ ابن رجب رحمته: «فأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد.

كما فسّر أبو بكر الصديق وغيره قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره.

(١) في «المسند» (١٣٠٤٨)، وحسنه الألباني في «الصّححة» (٢٨٤١).

فمَتَى استقامَ القلبُ على معرفةِ الله، وعلى خشيتِهِ، وإجلالِهِ، ومهابتِهِ، ومحَبَّتِهِ، وإرادتِهِ، ورجائِهِ، ودعائِهِ، والتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، والإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ؛ استقامتِ الجوارحُ كُلُّهَا على طاعَتِهِ، فَإِنَّ القلبَ هو مَلِكُ الأَعْضَاءِ، وهي جنودُهُ، فإذا استقامَ المَلِكُ؛ استقامتِ جنودُهُ ورعاياهُ»^(١).

وفي «الصَّحِيحِينَ»^(٢) عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضِغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

ويقول ابنُ القَيِّمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَقْدَمَةِ كِتَابِهِ «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ مِنْ مِصَائِدِ الشَّيْطَانِ»^(٣):

«وَلَمَّا كَانَ الْقَلْبُ لِهَذِهِ الْأَعْضَاءِ كَالْمَلِكِ الْمُتَصَرِّفِ فِي

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص: ٣٨٦).

(٢) البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) (٥/١).

الجُود الَّذِي تَصْدُرُ كُلُّهَا عَنْ أَمْرِهِ، وَيَسْتَعْمِلُهَا فِيهَا شَاءَ، فَكُلُّهَا تَحْتَ عِبُودِيَّتِهِ وَقَهْرِهِ، وَتَكْتَسِبُ مِنْهُ الْإِسْتِقَامَةَ وَالزَّيْغَ، وَتَتَّبَعُهُ فِيهَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْعَزْمِ أَوْ يَجْلُهُ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

هُوَ مَلِكُهَا وَهِيَ الْمُنْفَعَةُ لِمَا يَأْمُرُهَا بِهِ، الْقَابِلَةُ لِمَا يَأْتِيهَا مِنْ هَدْيَتِهِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهَا شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهَا حَتَّى تَصْدُرَ عَنْ قَصْدِهِ وَنِيَّتِهِ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ عَنْهَا كُلِّهَا».

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ

بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ]، وَكَانَ مِنْ دَعَاءِ نَبِيِّنَا ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا»^(١).

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٧١١٤)، وَالنَّسَائِيُّ (١٣٠٤)، وَانظُرْ: «الصَّحِيحَةُ»

الاستقامة المطلوبة من العبد هي السداد
فإن لم يقدر فالمقاربة

وقد جمع النبي ﷺ هذين الأمرين في قوله: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشُرُوا»^(١).

فالمطلوب في باب الاستقامة السداد؛ والسداد: أن تصيب السنة.

قال النبي ﷺ لعليّ عليه السلام لما طلب منه أن يعلمه دعاء يدعو الله به، قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي»، قال: «وَاذْكُرْ

(١) أخرجه البخاري (٣٩، و٦٤٦٣) من حديث أبي هريرة عليه السلام.

بِالْهُدَى هِدَايَتِكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ»^(١).
فَالْعَبْدُ مَطْلُوبٌ مِنْهُ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يُصِيبَ
السَّدَادَ، وَأَنْ يُصِيبَ هَدْيَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَهَجَهُ وَسُلُوكَهُ،
وَيُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَتِمَّكَنْ؛ فَعَلِيهِ بِالْمُقَارَبَةِ، فَقَدْ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوا﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٢٠].
وَذَكَرُ الْاسْتِغْفَارِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالِاسْتِقَامَةِ، فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى
أَنَّ الْعَبْدَ لَا بَدَلَ لَهُ مِنْ تَقْصِيرٍ مَهْمَا جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى الْاسْتِقَامَةِ؛
وَلِهَذَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَفِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ
لَا بَدَلَ مِنْ تَقْصِيرٍ فِي الْاسْتِقَامَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا، فَيُجْبَرُ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ
الْمُقْتَضِي لِلتَّوْبَةِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى الْاسْتِقَامَةِ، فَهُوَ كَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ
لِمَعَاذٍ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُ مَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا».

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٢٥).

وقد أخبر النبي ﷺ أَنَّ النَّاسَ لَنْ يُطِيقُوا الاستقامةَ حَقَّ
الاستقامةِ، كما خرَّجه الإمام أحمد، وابن ماجه من حديث
ثوبانَ عن النبي ﷺ قال: «استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا
أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الوُضُوءِ إِلَّا
مُؤْمِنٌ»^(١)، وفي رواية للإمام أحمد: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَلَا
يُحَافِظُ عَلَى الوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(٢)، وفي «الصَّحِيحِينَ» عن
أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»^(٣).

فالسَّدَادُ هو حقيقةُ الاستقامةِ، وهو الإصَابَةُ في جميع
الأقوالِ والأعمالِ والمقاصدِ، كالَّذِي يَرْمِي إِلَى غَرَضٍ فِيصِيبُهُ،
وقد أمر النبي ﷺ عَلِيًّا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ تعالى السَّدَادَ وَالْمُهْدَى،

(١) «مسند الإمام أحمد» (٢٢٣٧٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢٧٧)؛

وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل» (٤١٢).

(٢) «مسند الإمام أحمد» (٢٢٤٣٢).

(٣) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦: ٧٦).

وقال له: «اذكُرْ بِالسَّدَادِ تَسْدِيدَكَ السَّهْمَ، وبِالْهُدَى هِدَايَتَكَ
الطَّرِيقَ»^(١)، والمقارَبةُ أن يُصِيبَ ما يقرب من الغرض إن لم
يُصِبِ الغرضَ نفسه.

ولكن بشرط أن يكون مصمماً على قصد السداد،
وإصابة الغرض، فتكون مقاربتة عن غير عمد، ويدل عليه
قول النبي ﷺ في حديث الحكم بن حزن الكلبي: «يا أيُّها
النَّاسُ! إِنَّكُمْ لَنْ تَعْمَلُوا - أَوْ لَنْ تُطِيقُوا - كُلَّ مَا أَمَرْتُكُمْ،
وَلَكِنْ سَدُّوا وَأَبْشَرُوا»^(٢)، والمعنى: اقصِدوا التَّسْدِيدَ
والإصابة والاستقامة، فإنَّهم لو سدَّوا في العمل كلَّه،
لكانوا قد فعلوا ما أُمرُوا به كلَّه»^(٣).

(١) رواه مسلم، وقد تقدم.

(٢) رواه أبو داود (١٠٩٦)، والإمام أحمد (١٧٨٥٦) وحسنه الألباني
في «إرواء الغليل» (٦١٦).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/٥١٠-٥١١).

الاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والنيات

فالاستقامة المطلوبة من العبد استقامة في الأقوال وفي الأفعال وفي النيات؛ بمعنى أن أقوال العبد وجوارحه وقلبه ينبغي أن تكون كلها ماضية على الاستقامة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ»^(١):
«وَالِاسْتِقَامَةُ تَتَعَلَّقُ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَحْوَالِ وَالنِّيَّاتِ».

وَفِي «الْمُسْنَدِ» لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا

(١) (١٠٥/٢)

يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»^(١).

قال ابن رجب: «وأعظم ما يُراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه تُرجمان القلب والمعبر عنه»^(٢).
ويلاحظ هنا خطورة القلب واللسان على العبد في باب الاستقامة أو الجنوح عنها.

وفي هذا المعنى قال بعض أهل العلم: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه».

فالقلب واللسان كلاهما مُضغَةٌ صغيرةٌ جدًا إلا أن جوارح العبد كلها تبعٌ لهما، إذا استقام القلب واستقام اللسان استقامت الجوارح.

ودليلُ الأوّل - أي القلب - حديثُ النُّعمان بن بشير رضي الله عنه

(١) سبق تخريجه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص: ٣٨٦).

السَّابِق: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

ودليل الثاني - أي اللسان -: ما رواه الترمذي^(١) من

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: أَتَقِ اللَّهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ؛ فَإِنِ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّتْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا».

فإذا استقام القلب استقامت الجوارح، وإذا استقام اللسان استقامت الجوارح؛ واللسان ترجمان القلب وخليفته في ظاهر البدن.

فإذا أسند القلب إلى اللسان الأمر نفذ، فاللسان تابع للقلب، والجوارح تابعة لهما.

(١) برقم: (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٧١).

ولهذا كان واجباً على كلِّ مسلمٍ أن يُعنى بصلاح قلبه،
وأن يسألَ ربَّه - تبارك وتعالى - أن يُصلِحَ قلبه، وأن يُذهِبَ
عنه أمراضَ القلوبِ وأسقامها وأدواءها وسخائمها، ثمَّ
يعملَ على إصلاحِ لسانه بالأقوالِ الزَّكياتِ وجوارحه
بالأعمالِ الصَّالحاتِ.

لا تكون الاستقامة إلا لله وبالله وعلى أمر الله

١- لله: أي خالصة، بمعنى أن يستقيم العبد، وأن يلزم صراط الله المستقيم، مخلصاً بذلك الأمر لله عز وجل، طالباً به ثوابه ورضاه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٦].

٢- وبالله: أي مُستعيناً على تحقيقها والقيام بها، والثبات عليها بالله - تبارك وتعالى -: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة]، وفي الحديث الصحيح: «أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- وعلى أمر الله: أي أن يسير في استقامته على النهج القويم، والصراط المستقيم الذي أمر الله - سبحانه وتعالى - عباده به، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتُ﴾ [هُود: ١١٢]، وقد سبق ذكر بعض الآثار عن السلف - رحمهم الله تعالى - في تقرير هذا المعنى، كقول ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَقِيمُوا﴾ أي استقاموا في أداء الفرائض، وقال الحسن: «استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته»، وأمر الله ﷻ هو شرعه الذي بعث به نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

على العبد مهما استقام ألا يتكل على عمله

الواجبُ على العبدُ ألا يتكل على عمله مهما صلح واستقام، ولا يغترَّ بعبادته، ولا بكثرة ذكره لله، ولا بغير ذلك من الطاعات.

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

«والمطلوبُ من العبد الاستقامة وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة، كما في «الصحيحين»^(١) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا

(١) البخاري (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨).

عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!؟ قَالَ: وَلَا أَنَا؛ إِلَّا أَنْ
يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ».

فَجَمَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مَقَامَاتِ الدِّينِ كُلِّهَا؛ فَأَمَرَ
بِالاسْتِقَامَةِ: وَهِيَ السَّدَادُ وَالْإِصَابَةُ فِي النِّيَّاتِ وَالْأَقْوَالِ
وَالْأَعْمَالِ، وَأَخْبَرَ فِي حَدِيثِ تَوْبَانَ - أَي «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ
تُخْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ» - أَنَّهُمْ لَا
يُطِيقُونَهَا، فَنَقَلَهُمْ إِلَى الْمُقَارَبَةِ وَهِيَ أَنْ يَقْرُبُوا مِنَ الْاسْتِقَامَةِ
بِحَسَبِ طَاقَتِهِمْ، كَالَّذِي يَرْمِي إِلَى الْغَرَضِ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ
يُقَارِبْهُ؛ وَمَعَ هَذَا فَأَخْبَرَهُمْ: أَنَّ الْاسْتِقَامَةَ وَالْمُقَارَبَةَ لَا تُنْجِي
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَرْكَنُ أَحَدٌ إِلَى عَمَلِهِ، وَلَا يَعْجَبُ بِهِ، وَلَا
يَرَى أَنَّ نَجَاتَهُ بِهِ؛ بَلْ إِنَّهَا نَجَاتُهُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَعَفْوِهِ، وَفَضْلِهِ»^(١).

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٠٥).

ثمرۃ الاستقامة في الدنيا
الاستقامة على الصراط يوم القيامة

مَنْ هُدِيَ فِي الدُّنْيَا إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ هُدِيَ فِي
الدَّارِ الْآخِرَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَنْصُوبِ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ.
فِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يُنْصَبُ صِرَاطٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ أَحَدٌ مِنْ
السَّيْفِ وَأَدْقُ مِنَ الشَّعْرَةِ.

وَيُؤَمَّرُ النَّاسُ بِالْمُرُورِ عَلَيْهِ، وَيَتَفَاوَتُونَ فِي مَرُورِهِمْ عَلَيْهِ
تَفَاوَتَهُمْ فِي الْأَعْمَالِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ فِي
هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

«فَمَنْ هُدِيَ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي
أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ؛ هُدِيَ هُنَاكَ إِلَى الصِّرَاطِ
الْمُسْتَقِيمِ الْمُوَصِّلِ إِلَى جَنَّتِهِ، وَدَارِ ثَوَابِهِ، وَعَلَى قَدَرِ ثُبُوتِ قَدَمِ
العَبْدِ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ الَّذِي نَصَبَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ
يَكُونُ ثُبُوتُ قَدَمِهِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمَنْصُوبِ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ،
وَعَلَى قَدَرِ سَيْرِهِ عَلَى هَذِهِ الصِّرَاطِ يَكُونُ سَيْرُهُ عَلَى ذَلِكَ
الصِّرَاطِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرِّكَابِ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْعَى سَعِيًّا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ
يَجْبُو حَبْوًّا، وَمِنْهُمْ الْمَخْدُوشُ الْمُسَلِّمُ، وَمِنْهُمْ الْمُكَرَّدَسُ فِي
النَّارِ، فَلْيَنْظُرِ الْعَبْدُ سَيْرَهُ عَلَى ذَلِكَ الصِّرَاطِ مِنْ سَيْرِهِ عَلَى
هَذَا حَذْوِ الْقَدَّةِ بِالْقَدَّةِ جِزَاءً وَفَاقًا، ﴿هَلْ تُحْزِنُوكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ].

وَلْيَنْظُرِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَعَوَّقُهُ عَنْ سَيْرِهِ عَلَى
هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّهَا الْكَلَالِبُ الَّتِي بَجَبْتِي ذَاكَ
الصِّرَاطِ تَخَطَّفُهُ، وَتَعَوَّقُهُ عَنِ الْمُرُورِ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَثُرَتْ هُنَا
وَقَوِيَتْ، فَكَذَلِكَ هِيَ هُنَاكَ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٦٦)
[سُورَةُ فَضَّلَاتٍ] (١).

مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تَخَطَّفُهُ الشُّبُهَاتُ
وَالشَّهَوَاتُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَسْتَخَطَفُهُ الْكَلَالِبُ الَّتِي
عَلَى جَنْبَتِي الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلَ مَا خَطَفَتْهُ الشُّبُهَاتُ
وَالشَّهَوَاتُ فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا كَلَامٌ آخَرَ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا فِي كِتَابِهِ
«الْجَوَابُ الْكَافِي» (٢).

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠).

(٢) في (ص: ١٢٣).

الموانع من الاستقامة شبهات الضلال أو شهوات الغي

فالشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ قَوَاطِعٌ وَمَوَانِعٌ صَادَّةٌ عَنِ اسْتِقَامَةٍ؛
وَالسَّائِرُ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ يَمُرُّ فِي سَيْرِهِ بِاسْتِمْرَارٍ
بِشَبَهَاتٍ وَشَهَوَاتٍ تَصْرِفُهُ وَتَحْرِفُهُ عَنِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.
فَكُلُّ مَنْ يَنْحَرِفُ عَنِ اسْتِقَامَةٍ؛ إِمَّا أَنْ يَنْحَرِفَ عَنْهَا
بِشَهْوَةٍ أَوْ بِشَبَهَةٍ؛ وَالشَّهْوَةُ فَسَادٌ فِي الْعَمَلِ، وَالشُّبُهَةُ فَسَادٌ فِي
الْعِلْمِ.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا

تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في «مسند

الإمام أحمد^(١) قال:

«خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ،
ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ
عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا
صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن
سَبِيلِهِ﴾».

والشيطان الذي يدعو إلى الانحراف عن صراط الله
المستقيم؛ دعوته إلى الانحراف عن صراط الله المستقيم إمَّا
بشبهة أو شهوة.

فإذا رأى فيه التفریط حبب إليه الشهوات، وإذا رأى
عليه الحرص والمحافظة أدخل عليه الشبهات.

كما قال بعض السلف: «ما أمر الله تعالى بأمر إلا

(١) برقم (٤١٤٢).

وللشيطان فيه نزغتان: إمّا إلى تفريط وتقصير، وإمّا إلى مجاوزة وغُلُوٍّ، ولا يبالي بأيّهما ظفر».

قال ابن القيم: «وقد اقتطع أكثر النَّاسِ إِلَّا أَقْلُ القليل في هذين الواديين: وادي التَّقْصِيرِ ووادي المِجَاوِزَةِ والتَّعْدِي، والقليل منهم جدًّا الثَّابِتُ على الصِّراطِ الَّذِي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه»^(١).

وهنا ينبغي أن نَسْتَحْضِرَ مثلاً بديعاً عظيماً، وهو في غاية النَّفْعِ، ثبت في «المسند» و«الترمذي» وغيرهما من حديث النَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

«ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ! ادْخُلُوا الصِّرَاطَ

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/١٣٦).

بجميعاً، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصَّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ
يَنْتَحِ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ
تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصَّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ،
وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتَحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ
الصَّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصَّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي
قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»^(١).

فتصوّر المثل ينفعك الله به؛ ضربَ الله مثلاً صراطاً
مستقيماً، وعلى جنبتي الصَّرَاطِ سُورَانِ (جِدَارَانِ)، تَمْشِي فِي
طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ عَلَى يَمِينِكَ جِدَارٌ، وَعَنْ يَسَارِكَ جِدَارٌ، وَفِي
الْجِدَارَيْنِ أَبْوَابٌ كَثِيرَةٌ، تَمُرُّ بِهَا عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ يَسَارِكَ،
وَهَذِهِ الْأَبْوَابُ عَلَيْهَا سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْبَابَ

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣٤)، والترمذي (٢٨٥٩)، والحاكم (١٤٤ / ١)
وصحَّحه ووافقه الذهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٨٧).

الَّذِي عَلَيْهِ سِتَارَةٌ لَيْسَ كَالْبَابِ الَّذِي عَلَيْهِ أَبْوَابٌ وَمِفْتَاحٌ،
فَالْبَابُ الَّذِي عَلَيْهِ سِتَارَةٌ تَدْخُلُهُ بِلَا كُفَّةٍ، لَا يَعْوُقُكَ عَنِ
الدُّخُولِ شَيْءٌ؛ وَالْمُسْلِمُ الْمُسْتَقِيمُ إِذَا أَرَادَتْ نَفْسُهُ أَنْ تَدْخُلَ
فِي شَهْوَةٍ يَجِدُ أَنَّ قَلْبَهُ يَنْقَبِضُ وَيَلْفَظُهَا، وَلَا يَجِدُ رَاحَةً وَلَا
طَمَئِينَةً، فَهَذَا وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ عَلَى جَنْبَيْ طَرِيقِ
الاسْتِقَامَةِ أَبْوَابٌ تُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ طَرِيقِ الْاسْتِقَامَةِ، وَهَذِهِ
الْأَبْوَابُ تَرْجِعُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى أَمْرَيْنِ: إِمَّا شُبُهَاتٌ أَوْ شَهْوَاتٌ؛
وَمِنْ خُرُوجِ الْعَبْدِ عَنِ الْاسْتِقَامَةِ إِمَّا بِشُبُهَةٍ أَوْ بِشَهْوَةٍ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ نَصَبَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - الْجَسَرَ
الَّذِي يَمُرُّ النَّاسُ مِنْ فَوْقِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَنَصَبَ بِجَانِبَيْهِ كَلَالِبَ
تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَهَكَذَا كَلَالِبُ الْبَاطِلِ مِنْ تَشْبِيهَاتِ
الضَّلَالِ، وَشَهْوَاتِ الْغَيِّ تَمْنَعُ صَاحِبَهَا مِنَ الْاسْتِقَامَةِ عَلَى

طريق الحق وسلوكه، والمعصوم من عصمه الله»^(١).

والعبد في هذا المقام يحتاج إلى نوعين من الهداية ليسلم له سيره، وهما: الهداية إلى الصراط المستقيم، والهداية في الصراط المستقيم.

قال ابن القيم: «فالهداية إلى الطريق شيء، والهداية في نفس الطريق شيء آخر، ألا ترى أن الرجل يعرف أن طريق البلد الفلاني هو طريق كذا وكذا، ولكن لا يحسن أن يسلكه، فإن سلوكه يحتاج إلى هداية خاصة في نفس السلوك، كالسير في وقت كذا دون وقت كذا، وأخذ الماء في مفازة كذا مقدار كذا، والنزول في موضع كذا دون كذا، فهذه هداية في نفس السير قد يهملها من هو عارف بأن الطريق هي هذه، فيهلك وينقطع عن المقصود»^(٢).

(١) «الصواعق المرسله» (٤/١٢٥٦).

(٢) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص ٩).

التشبه بالكفار من أعظم الجنوح عن الاستقامة

والتشبه بهم راجعٌ إلى نوعين من الفساد: إمَّا فساد العلم أو فساد العمل.

وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ﴿٧﴾ .

فساد اليهود من جهة العمل، وفساد النصارى من جهة العلم، فاليهود علموا ولم يعملوا، والنصارى عملوا بلا علم.

فالفساد الذي يكون في هذا الباب، إمَّا بمشابهة لليهود بأن يكون عند الإنسان علمٌ لا يعملُ به، أو بمشابهة

للنَّصارى بأنَّ يعملَ بلا عِلْمٍ ولا بصيرةٍ.

وقد سمَّى شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كتابه «اقتضاء الصُّراطِ المستقيم مخالفةَ أصحابِ الجحيم»، وأشار فيه رَحِمَهُ اللهُ إلى بعضِ أمورِ أهلِ الكتابِ التي ابتليت بها هذه الأمة؛ ليجتنب المسلمُ الانحرافَ عن الصُّراطِ المستقيمِ إلى صراطِ المغضوبِ عليهم أو الضَّالِّين، وأورد قولَ الله سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال: «فدَّمَ اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم، وقد يُبتلى بعضُ المتسبين إلى العلم وغيرهم بنوعٍ من الحسد لمن هداه الله بعلمٍ نافعٍ أو عملٍ صالحٍ، وهو خُلُقٌ مذمومٌ مطلقاً، وهو في هذا الموضع من أخلاقِ المغضوبِ عليهم»^(١).

(١) «اقتضاء الصُّراطِ المستقيم» (١/٨٣).

وأخذ يذكر رَحِمَهُ اللهُ أمثلةً عديدةً من الأمور التي هي من
أعمال اليهودِ أو أعمال النَّصارى، وقد يتشبه بهم فيها بعضُ
المسلمين، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَتَبْعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ
تَبِعْتُمُوهُمْ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد
الخدري رضي الله عنه.

خاتمة

أختم بكلمة جميلة متينة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «سمعت شيخ الإسلام ابن

تيمية رَحِمَهُ اللهُ يقول:

«أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»^(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الفرقان بين أولياء

الرَّحْمَنِ وأولياء الشَّيْطَان»^(٢):

«وإنَّما غاية الكرامة لزوم الاستقامة».

(١) «مدارج السَّالِكِينَ» (٢/١٠٥).

(٢) (ص ٣٤٩).

ولهذا يقول ابن القيم نقلاً عن بعض أهل العلم قال:
«كُنْ صَاحِبَ اسْتِقَامَةٍ لَا طَالِبَ الْكِرَامَةِ، فَإِنَّ نَفْسَكَ
مَتَحَرِّكَةٌ فِي طَلَبِ الْكِرَامَةِ، وَرَبُّكَ يُطَالِبُكَ بِالْإِسْتِقَامَةِ»^(١).

بمعنى أن العبد ينبغي عليه أن يكون دوماً وأبداً مجاهداً
لنفسه في أن تلزم صراط الله المستقيم، وأن تحافظ على طاعته
- تبارك وتعالى -، وأن يجاهد نفسه على ذلك لينال أعظم
الفوز وأكبر الغنيمة، وهو قول ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا
تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ مَعَنُ أَوْلِيَائِكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نَزُلًا مِنْ عَفْوِرٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾
[سُورَةُ مُنَافِقَاتٍ]، ويقوله - جلَّ وعزَّ -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٠٥).

أَسْتَقْنَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [سُورَةُ الْاِحْقَافِ].

أَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَى
وصِفَاتِهِ العَلِيَا أَنْ يَكْتُبَ لَنَا جَمِيعًا الثَّبَاتَ وَالهَدَايَةَ إِلَى صِرَاطِهِ
المُسْتَقِيمِ، وَأَنْ يُعِيدَنَا مِنْ سَبِيلِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمِ وَسَبِيلِ
الضَّالِّينَ، وَأَنْ يُصَلِّحَ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ، وَأَنْ يُصَلِّحَ لَنَا دِينَنَا
الَّذِي هُوَ عِصْمَةٌ أَمْرِنَا، وَأَنْ يُصَلِّحَ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا
مَعَاشُنَا، وَأَنْ يُصَلِّحَ آخِرَتَنَا الَّتِي فِيهَا مَعَادُنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ
الحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ وَالمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ وَأَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا
مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

فهرس الموضوعات

* الافتتاحية ٣

* القاعدة الأولى:

الاستقامة منة إلهية وهبة ربانية ٦

* القاعدة الثانية:

حقيقة الاستقامة لزوم المنهج القويم والصراط المستقيم ... ١١

* القاعدة الثالثة:

أصل الاستقامة استقامة القلب ١٥

* القاعدة الرابعة:

الاستقامة المطلوبة من العبد هي السداد فإن لم يقدر فالمقاربة ... ١٨

* القاعدة الخامسة:

الاستقامة تتعلّق بالأقوال والأفعال والنّيّات ٢٢

* القاعدة السادسة:

لا تكونُ الاستقامةُ إلاّ لله وبالله وعلى أمرِ الله ٢٦

* القاعدة السابعة:

على العبدِ مهما استقام ألاّ يتكلّ على عمَلِه ٢٨

* القاعدة الثامنة:

ثمرَةُ الاستقامة في الدُّنيا الاستقامة على الصراط يوم القيامة .. ٣٠

* القاعدة التاسعة:

الموانع من الاستقامة شبهات الضلال أو شهوات الغيّ ٣٣

* القاعدة العاشرة:

التشبه بالكفّار من أعظم الجنوح عن الاستقامة ٣٩

* خاتمة ٤٢